# الفصل العاشر

# الأعشى

## ١

## قبيلته

ينتسب الأعشى إلى قبيلة بكر بن وائل الكبيرة التي كانت تمتد فروعها وبطونها في شرقي الجزيرة من وادي الفرات إلى اليمامة. ومن أهم هذه الفروع والبطون شيبان ويشكر وجشم وعجل، ثم حنيفة وقيس بن ثعلبة وكانتا تنزلان في اليمامة، وتتشعب قيس شعبًا أهمها مالك بن ضبيعة ومن عشائرهم بنو عبدان وبنو كعب، وربيعة ابن ضبيعة ومن بيوتاتهم بنو جحدر، وسعد بن ضبيعة وإليهم ينتمي الأعشى.

وتاريخ عشيرة بني سعد بن ضبيعة في العصر الجاهلي يندمج في تاريخ قبيلتها الكبيرة، فقد وقفت معها في حروب البسوس التي ظلت أربعين عامًا، كما وقفت معها في يوم الكلاب، ودخلت معها بعد هذا اليوم فيما دخلت فيه من الولاء للمناذرة وطالما نصرتهم في حروبهم مع الغساسنة. ولما طلب كسرى أبرويز النعمان بن المنذر احتمى هو وأسرته ببني شيبان إحدى قبائل بكر وخلف عند سيدهم هاني بن قبيصة الشيباني أولاده وسلاحه الذي يقال إنه بلغ نحو ألف درع. وقتل كسرى النعمان كما مر في غير هذا الموضع وولي على الحيرة إياس بن قبيصة الطائي، فثارت شيبان وقبائل بكر ضده وأخذت جموعها تغير على سواد العراق، فاضطر كسرى أن ينازلها، ودارت على جيوشه الدوائر في يوم ذي قار المشهور الذي انتصر فيه العرب على الفرس، وقد اختلف المؤرخون في توقيت تاريخه[1].

(١) أنظر في يوم ذي قار الأغاني (طبعة الساسي) ٢٠/ ١٣٢ والطبري (طبعة دي غويه) ١/ ١٠١٥، ١/ ١٠٢٨ وما بعدها، وابن الأثير ١/ ٢٩٠ والعقد الفريد ٦/ ١١١. وراجع معجم ما استعجم للبكري ومعجم البلدان لياقوت في "ذي قار".



obeikandl.com

ولم تشترك قيس بن ثعلبة في هذه الحروب وحدها، فقد أسهمت مع بني حنيفة من البكريين في حروب ضد تميم وغيرها من القبائل. وقد تقع حروب ومناوشات داخلية بين عشائرها، مثلها مثل بقية العشائر في الجاهلية إذ كانت كثيرًا ما تنشب بينها خلافات تؤدي إلى بعض الدماء. ويظهر أنها على الرغم من استقرارها في اليمامة وسكناها بعض القرى مثل "منفوحة" كانت تنزع إلى حياة البداوة وما يتصل بها من رعي الإبل والغنم، ولعل ذلك ما جعل الأعشى يهجو إيادًا في بعض شعره بأنها تعتمد على الزراعة يقول[1]:

لسنا كمن جعلت إيــاد دارهــا تكريت تنظر حبهــا أن يحصــدا

جعل الإله طعامنا في مالنــا رزقًا تضمنه لنا لــن ينفــدا[2].

مثل الهضاب جزارة لسيوفنــا فإذا تراع فإنها لــن تطــردا[3].

ضمنت لنا أعجازهن قدورنــا وضروعهن لنا الصريح الأجــردا[4].

وواضح أنه يصرح بأن إياد تعتمد على الزراعة والحصاد، أما هم فما لهم الإبل التي لا تنفد، وهي إبل ضخمة كالهضاب، يعقرونها لضيوفهم، ولا يلم بها من يروعها أو يغير عليها خوفًا من بسالتهم، وهي تملأ قدروهم بلحمها وبيوتهم بألبانها.

وعلى العكس كان أبناء عمومتهم من بني حنيفة أكثر استقرارًا، وقد اتخذوا الحجر قصبةً لهم، وكان سيدهم في أواخر العصر الجاهلي هوذة بن على، وكان يحمي القوافل الفارسية في طريقها إلى اليمن، ولعله من أجل ذلك وقف بعيدًا بقبيلته عن يوم ذي قار، فلم تشترك فيها. وأغلب الظن أن هذه القبيلة لم تعتمد على الرعي وحده شأن قبيلة الأعشى، بل كانت تعتمد أيضًا على الزراعة، فكانت نصف حضرية. وقد شاعت فيها النصرانية، أما قيس بن ثعلبة فظلت في جملتها وثنية تعبد

(١) ديوان الأعشى طبعة جاير. القصيدة رقم ٣٤، الأبيات: ٣٣ وما بعده.

(٢) المال هنا: الإبل.

(٣) جزارة: مصدر جزره أي ذبحه ومنه يسمى البعير جزورًا.

(٤) الصريح: اللبن الخالص. الأجرد: الصافي.



obeikandl.com

الصنام. وليس هذا كله ما بينهما من خلاف، فبينما حنيفة لا يعرف لها شاعر مذكور في الجاهلية[1] إذ قيس كثيرة الشعر والشعراء، وقد يكون ذلك بسبب بداوة قيس وكثرة الحروب التي عانتها، يقول ابن سلام: "وبالطائف شعر وليس بالكثير، وإنما كان يكثر الشعر بالحروب التي تكون بين الأحياء. والذي قلل شعر قريش أنه لم يكن بينهم نائرة ولم يحاربوا، وذلك الذي قلل شعر عمان[2]" ونقول أيضًا إنه الذي قلل شعر حنيفة في اليمامة.

أما قيس بن ثعلبة فقد كانت كثيرة الحروب، فكانت تغير ويُغار عليها، وفي أثناء ذلك ينشد لها شعراؤها القصائد والأناشيد المحمسة، فنما الشعر فيها وازدهر، وقد اشتهر فيها غير شاعر من مثل المرقش الأكبر والمرقش الأصغر والمتلمس وابن أخته طرفة والمسيب بن علس. وقد أنشدنا في غير هذا الموضع قطعة طرفة في المعلقة التي يصور فيها فتوته وأنه ينفق حياته في الكرم والحروب والنساء والخمر. ونجد هذه الروح في شعر المرقشين، كما نجد عندهما غزلاً خفيفًا رقيقًا، ولكل منهما قصة عشق مأثورة.

(١) ابن سلام ص٢٣٤.

(٢) ابن سلام ص٢١٧.



obeikandl.com

## ٢

## حياتـه

عاش الأعشى في أواخر العصر الجاهلي، وليس بين أيدينا شيء واضح عن نشأته، وكل ما يقوله الرواة أنه ولد بمنفوحة في اليمامة وأن أباه كان يلقب بقتيل الجوع "لأنه دخل غارًا يستظل فيه من الحر، فوقعت صخرة عظيمة من الجبل، فسدت فم الغار، فمات فيه جوعًا، وفي ذلك يقول جهنام يهجوه، وكانا يتهاجيان:

أبوك قتيل الجوع قيس بـن جنــدلٍ وخالك عبد من خماعة راضــع[١].

وخماعة- فيما يظهر- جد بعيد لأمه، وهي أخت المسيب بن علس، وعنه حمل الشعر الأعشى، إذ كان روايته، ولا شك في أنه روى لغيره من شعراء قبيلته، فهو امتداد لهم جميعًا.

واسم الأعشى ميمون، وإنما سمى الأعشى لضعف بصره، ومن أجل ذلك كان يكني بأبي بصير[٢]. وإذا كنا لا نعرف شيئًا واضحًا عن نشأته فإنه يتبين لنا من أخباره ومن اسمه "صناجة[٣] العرب" أنه انتقل بالشعر الجاهلي نقلة، فإن كلمة صناجة تعني أنه كان يتغنى بشعره، ويبالغون في ذلك حتى يجعلوا كسرى يستمع لبعض غنائه فيه[٤]!!

وتدل أخباره وأشعاره على أنه كان كثير التنقل والأسفار البعيدة في أنحاء الجزيرة يمدح سادتها وأشرافها، وفي ديوانه مديح للأسود بن المنذر وأخيه النعمان وإياس بن قبيصة الطائي وإلى الحيرة من بعده، ويظهر أنه كان يقيم بها كثيرًا. وفيه أيضًا مديح لقيس بن معد يكرب الكندي ولسلامة ذي فائش أحد أمراء اليمن ولبني عبد المدان بن الديان سادة نجران ولهوذة بن على سيد بني

---

(١) أغاني (طبعة دار الكتب) ٩/ ١٠٨.

(٢) ذهب ابن قتيبة إلى أنه كان أعمى. أنظر الشعر والشعراء (طبع دار المعارف) ١/ ٢١٢.

(٣) أغاني ٩/ ١٠٩.

(٤) أغاني ٩/ ١١٥ والشعر والشعراء ١/ ٢١٤.



obeikandi.com

حنيفة. وكان يفد على سوق عكاظ، ويمدح من يمر به في طريقه إليها من شيوخ العرب وأشرافهم[1].

ولا يكتفي الرواة بما يدل عليه شعره من الرحلة إلى الحيرة واليمن وديار كندة في حضرموت ونجران وعكاظ بل يذهبون به إلى الفرس وعمان وبلاد الشام متغلغلاً فيها إلى حمص وأورشليم (بيت المقدس) ويجتازون به البحر إلى نجاشي الحبشة، ويجرون على لسانه شعرًا يتحدث فيه عن هذه الرحلات البعيدة، فيقول[2]:

وقد طفت للمال آفاقه عمان فحمص فأوريشلم

أتيت النجاشي في أرضه وأرض النبيط وأرض العجم

وأكبر الظن أنه لم يصنع شيئًا من ذلك وأنه إنما اقتصر في أسفاره ورحلاته على أطراف اليمن ونجد والحيرة يمدح شيوخ العرب وسادتهم. ووقع- كما يقول الرواة- في بعض رحلاته بديار بني عامر ومعه هداياه من بعض ممدوحيه، فخشى على نفسه وعلى هداياه، فاستجار بعلقمة بن علاثة، فقال له قد أجرتك، فقال له الأعشى من الجن والإنس؟ قال: نعم، قال الأعشى: ومن الموت، فقال: لا. وتمضي القصة فتذكر أن علقمة كان قد اختلف مع ابن عمه عامر ابن الطفيل على سيادة القبيلة، وتنافرا منافرة حادة، اشترك فيها كثير من الشعراء، فكان مع علقمة مروان بن سراقة والحطيئة ومع عامر لبيد الشاعر المشهور. ولما لم يجر علقمة الأعشى من الموت أتى عامر بن الطفيل فقال له: أجرني قال: قد أجرتك، قال: من الجن والإنس؟ قال:نعم. قال: ومن الموت قال: نعم. قال: وكيف تجيرني من الموت؟ قال: إن مت وأنت في جواري بعثت إلى أهلك الدية، فقال: الآن علمت أنك قد أجرتني من الموت. فمدح عامرًا وهجا علقمة[3].

والأعشى في شعره لا يعيش لمديح السادة والأشراف وأخذ نوالهم فحسب، بل هو يعيش أيضًا لقبيلته ومنازعاتها الكثيرة مع بكر ضد الفرس، ففي ديوانه مطولة يهددهم فيها ويتوعدهم

(١) أغاني ٩/ ١١٣ وما بعدها.

(٢) ديوانه القصيدة رقم ٤ وقارن بالقصيدة رقم ٦٣.

(٣) أنظر في هذه المنافرة وصلة الأعشى بها الأغاني (طبعة الساسي) ١٥/ ٥٥ وديوان الأعشى ص١٦٥.

كما يتوعد من يقف معهم من العرب مثل إياد[1]، وهو يعيش كذلك في منازعات قبيلته مع بني شيبان، فيتعرض بالوعيد والتهديد ليزيد بن مسهرٍ الشيباني، على نحو ما تصور ذلك معلقته. فإذا حدثت منازعات صغرى بين عشيرته وأبناء عمومتهم من عشائر قيس بن ثعلبة ناصرها ذاكرًا ما بينهم وبينها من أواصر الرحم، على نحو ما نرى في قصائده التي وجهها إلى بني جحدر وبني عبدان. وقد اصطدم عند الأخيرين بشاعرهم جهنام، فتهاجيًا طويلاً.

ويقال إنه لما سمع بالرسول صلى الله عليه وسلم وانتصاراته وانتشار دعوته رغب في الوفود عليه ومديحه، وعلمت قريش بذلك فتعرضت له تمنعه، وكان مما قاله له أبو سفيان بن حرب: إنه ينهاك عن خلال ويحرمها عليك، وكلها بك رافق ولك موافق، قال: وما هن؟ فقال أبو سفيان: الزنا والقمار والربا والخمر. فعدل عن وجهته، وأهدته قريش مائة من الإبل، فأخذها وانطلق إلى بلده معرضًا عن الرسول ودعوته، فلما كان بقاع منفوحة رمى به بعيره، فقتله[2] سنة ٦٢٩ للميلاد.

وهذه الخلال التي ذكرها أبو سفيان والتي جعلته يصد عن لقاء الرسول الكريم تدل على أنه كان وثنيًا مغرقًا في وثنيته، وفي شعره نفسه ما يصور معالم هذه الوثنية، إذ نراه كثير الحديث عن القيان مثل هريرة وقتيلة وجبيرة، بل إنه ليتحدث عن البغايا اللائي يبعن أعراضهن[3]، ويقرنه ابن سلام في هذا الصدد بامرئ القيس فيقول: "وكان من الشعراء من يتأله في جاهليته ويتعفف في شعره ولا يستهر بالفواحش.. ومنهم من كان يتعهر ولا يبقي على نفسه ولا يتستر، منهم امرؤ القيس ومنهم الأعشى[4]". وقد تمدح في شعره كثيرًا بالقمار كقوله مفتخرًا بعشيرته[5]:

من شبابٍ تراهم غـــير ميـــلٍ ... وكهـــولاً مراجحـــاً أحلامـــاً[6].

ولقد تصلق القداح علـــى النـ ... ـيب إذا كان يسرهن غرامـــاً[1].

---

(١) الديوان، القصيدة رقم ٣٤.

(٢) أغاني ٩/ ١٢٥ وما بعدها والشعر والشعراء ١/ ٢١٢.

(٣) الديوان، القصيدة رقم ٢٢.

(٤) ابن سلام ص٣٤ ويستبهر في الفواحش: يتبجح بذكرها ويفصحها حقه أن يكتتم.

(٥) الديوان، القصيدة رقم ٣٨.

(٦) ميل: جمع أميل وهو الجبان. مراجحًا: راجحي العقول.

فهم يضربون قداح الميسر على النوق الضخمة التي يتأبى غيرهم أن يضربها عليها اعتزازًا بها. أما الخمر فهو أكبر شاعر تغنى بها في الجاهلية.

وطبيعي لمن تكون حياته على هذا النحو من المجون والإثم فيه أن يكون وثنيًا متعمقًا في وثنيته وأن لا يعتنق الإسلام ولا غير الإسلام من الأديان السماوية، وقد زعم لويس شيخو أنه كان نصرانيًا، وشاركه في هذا الزعم بعض المستشرقين مستدلين على ذلك بأنه كان يمدح أساقفة نجران ويتصل بالبيئات المسيحية في الحيرة وبمثل قوله في القصيدة رقم أربع وثلاثين:

ربى كريـــم لا يكـــدر نعمـــة وإذا يناشد بالمهـــارق أنشـــدًا

والمهارق هنا الصحف الدينية. فكأنه يعترف بأنه نصراني، ترتل لربه الأناشيد الكنسية، غير أن هذا ليس حتمًا، فقد تكون لدى الوثنيين من الجاهليين مهارق كانوا يتلون فيها بعض أدعيتهم، وقد يكون البيت دخيلاً على القصيدة، وسنعرف بعد قليل أن راوي ديوانه كان مسيحيًا، وأغلب الظن أنه هو الذي أدخل هذا البيت في القصيدة، كما أدخل في قصيدة أخرى قسمه بالمسيح في قوله[٢]:

وإني ورب الساجديـــن عشبـــة وما صك ناقوس النصارى أبيلهـــا[٣].

وقد جعله في قصيدة ثالثة يقسم براهب اللج، بل بثوبه[٤]. وقد يكون في ذلك ما يدل على أن القصيدتين جميعًا موضوعتان فقد كان الأعشى وثنيًا غاليًا في وثنيته، كما تدل على ذلك خلاله التي وصفناها في شعره، وأيضًا أقسامه الوثنية التي رواها نفس هذا الراوي المسيحي، إذ نراه يقسم بالكواكب والنجوم[٥]، كما يقسم بالكعبة التي يحج إليها العرب وبما يهدون إليها من القرابين في مثل قوله[٦]:

---

(١) تصلق: تضرب. النيب: الإبل الكبيرة. اليسر: القمار.

(٢) أنظر الديوان، القصيدة رقم ٢٣ البيت ١٦.

(٣) صك: ضرب. الإبيل: الراهب.

(٤) القصيدة رقم ١٥ البيت ٤٤.

(٥) القصيدة رقم ٢٧ البيت ١٨.

(٦) القصيدة رقم ٦ البيت ٦٢.



obeikandi.com

إني لعمر الذي خطــت مناسمهــا  تخدي وسيق إليه الباقـر الغـيل[1].

والحق أنه لم يكن نصرانيًا، إنما كان وثنيًا على دين آبائه، وقد احتفظ في وثنيته بكل ما كان فيها من إثم وفجور.

(١) خطت: شقت التراب. المناسم: جمع منسم وهو طرف الخف. تخدى: تسرع في السير مع اضطراب. البـاقر: اسـم جمـع للبقر. الغيل: جمع غيول وهو الكثير.



obeikandl.com

## ٣

## ديوانـه

للأعشى ديوان كبير نشره جاير في لندن[1] سنة ١٩٢٨ وقد اعتمد في نشره على مخطوطة في الإسكوريال برواية ثعلب المتوفى سنة ٢٩١ للهجرة ثم مخطوطة دار الكتب المصرية ونسختين نقلتا عنها في استراسبورج وزاخو، ومخطوطة في باريس وأخرى في ليدن. وأضاف إلى الديوان ملحقين بما وجده من شعر الأعشى في كتب الأدب وما وجده من أشعار لمن لقبوا بالأعشى وهم كثيرون.

وكان اعتماده الأساسي على مخطوطة الإسكوريال، لأنها برواية ثعلب، وعلى الرغم من أنها تنقص أوراقًا من نهايتها تحتفظ للأعشى بسبع وسبعين قصيدة ومقطوعة. وقد أضاف إليها خمس قصائد من المخطوطات الخمس الأخرى، وجميعها تتفق في رواية خمس عشرة قصيدة له. كما تتفق في أنها مجهولة النسب. ولذلك لا يمكن الاعتماد على هذه المخطوطات وأغلب الظن أنها مختارات جمعت من نسخة ثعلب، وليس رواية مقابلة لها. وقد صورت دار الكتب المصرية مخطوطة من المكتبة المتوكلية اليمنية بها ست وأربعون قصيدة ومقطوعة للأعشى، ويفجؤنا كاتبها في فاتحتها بأن هذا كتاب فيه من شعر الأعشى، فهي لا تتضمن ديوانه إنما تتضمن مختارات منه، وهي مختارات تدل على أنها جُمعت من نفس الرواية الكوفية، وإن كنا نجد فيها قصائد غير مثبتة في رواية ثعلب، ولكن هذا لا يقوم دليلاً على أنها لم تشتق من روايته، فروايته التي نشرها جاير كما قدمنا غير كاملة، إذ تنقص بعض أوراق. ومعنى ذلك أننا نفتقد في شعر الأعشى الرواية البصرية، فيما عدا القصيدتين رقم ٦، ١١ فقد نص شارح الديوان على أن أبا عبيدة قرأ الأولى على ابي عمرو بن العلاء وأن الأصمعي سمع أبا عمرو ينشد الثانية حفظًا، ونص الشارح أيضًا على أن القصائد ٢٨، ٢٩، ٣٠، ٧٥، ٦٥، ٦٦ برواية أبي عمرو، وظن جاير- كما ذكر في مقدمته- أنه أبو عمرو بن العلاء، وليس بصحيح إنما هو أبو عمرو الشيباني، فهو الذي كانت تروى عنه الدواوين، وهو رواية كوفي ينقل عنه السكرى وثعلب وأضرابهما من رواة الدواوين. على أن الشارح نص في

(١) شرح محمد حسين هذا الديوان ونشره بمكتبة الآداب بالقاهرة سنة ١٩٥٠.



obeikandl.com

القصائد ١، ٢٩، ٣٤، ٥٥، ٥٨، ٥٩، ٦٠ أنها من رواية أبي عبيدة البصري، وإن كنا نلاحظ أن القدماء شكوا في القصيدة رقم ٦٠ وقالوا إنها لابن دأب[١]. على كل حال ليس بين أيدينا رواية بصرية كاملة للديوان، إنما بين أيدينا رواية كوفية فيها إشارات إلى بعض ما تضمنته الرواية البصرية.

فإذا لاحظنا أن الرواية الكوفية للشعر الجاهلي غير دقيقة وأنها تتزيد فيه كما لاحظنا سابقًا في دواوين امرئ القيس والنابغة وزهير كان من الواجب ألا نقبل روايتها لديوان الأعشى دون احتياط واحتراس شديد، وقد تصادف أن روايته الذي حمله عنه وأذاعه في الناس كان نصرانيًا معمراً هو يحي[٢] أو يونس بن متى وأن هذا الراوي من الممكن أن يكون قد عبث بالديوان فأدخل فيه ما ليس منه، ليزيد بعض المعاني المسيحية، وقد روى عنه أنه كان يقول: "كان الأعشى قدريًا إذ يقول:

استأثـر الله بالوفـاء وبـالـ ـعدل وولى الملامـة الرجـلا

فسأل سائل: من أين أخذ الأعشى قوله ومذهبه بأجاب: "من قبل العباديين نصارى الحيرة، كان يأتيهم يشتري منهم الخمر، فلقنوه ذلك[٣]". ويبعد أن يكون الأعشى حقًا قد تغلغل نظره كل هذا التغلغل، فإذا هو يقول بالقدر وأن الإنسان حر في تصرفاته، ولا يكتفي بذلك، بل يقول بالعدل على الله كما تقول المعتزلة، والمعقول أن يكون يحيى هو الذي وضع البيت، بل لقد شك ابن قتيبة في القصيدة جميعها، وقال بعد أن روى طائفة من أبياتها هذا شعر منحول[٤]. وينبغي أن نشك كما شك ابن قتيبة في قصائد الأعشى الأخرى التي تصور أفكارًا مسيحية أو أفكارًا إسلامية، أما الأفكار المسيحية فلأن رواية الذي نشره نصراني، وأما الثانية فلأنها معان جديدة لم تعرفها الجاهلية، ولا هي لا كل ما يتصل بها من ألفاظ القرآن وأساليبه. ويصور ذلك تصويرًا واضحًا

---

(١) الديوان ص٢٠٧.

(٢) الأغاني ٩/ ١١٢ ومصادر الشعر الجاهلي ص٢٣٨.

(٣) الأغاني ٩/ ١١٣ وما بعدها.

(٤) الشعر والشعراء (طبعة دار المعارف) ص١٤.



obeikandi.com

قصيدته رقم ١٧ التي قالوا إنه مدح بها الرسول صلوات الله عليه، مع أنه- كما قدمنا- لم يلقه وصدته قريش عن لقائه، وبمجرد أن نقرأ القصيدة وقوله فيها:

إذا أنت لم ترحل بزادٍ من التقـــي ... ولاقيت بعد الموت من قد تـــزودا

ندمت على أن لا تكون كمثلـــه ... وأنك لم ترصد لما كان أرصـــدا[١].

فإياك والميتـــات لا تأكلنهـــا ... ولا تأخذن سهمًا حديدًا لتفصـــدا[٢].

وذا النصب المنصوب لا تنسكـــنه ... ولا تعبد الأوثان والله فاعبـــدا[٣].

وصل على حين العشيات والضحـــى ... ولا تحمد الشيطان والله فاحمـــدا

ولا السائل المرحوم لا تتركنـــه ... لعاقبةٍ ولا الأسيـــر المقيـــدا

ولا تسخرن من بائس ذي ضـــرارةٍ ... ولا تحسبن المرء يومًا مخلـــدًا[٤].

ولا تقربن جـــارة إن سرهـــا ... عليك حرام فانكحن أوتأبـــدا[٥].

نعرف توا أنها موضوعة، لا لأنه فيما يدعو إلى تعاليم إسلامية فحسب، بل لأنه ينظم فيها آيات قرآنية من مثل قوله تعالى: (وتزودوا فإن خير الزاد التقوى) وقد نظم في البيتين الثالث والرابع قوله تعالى: (حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به) أما في البيت الخامس فنظم قوله تبارك وتعالى: (واذكر ربك كثير وسبح بالعشي والإبكار). ونظم في البيت السادس قوله جل وعز: (والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم). وفي البيت السابع نظم قوله جل ذكره: (يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرًا منهم) أما البيت الثامن

---

(١) أرصد: أعد وهيأ.

(٢) يشير إلى أنه لابد من الذبح كما تقضي تعاليم الإسلام.

(٣) النصب: حجارة كانوا ينصبونها حول الكعبة ويقدسونها أو هي الأوثان.

(٤) الضرارة: ذهاب البصر أو النقص في الأنفس والأموال.

(٥) السر هنا: البضع. النكاح: الزواج. التأبد: البعد عن النساء والتعزب.



obeikandl.com

فنظم فيه مثل قوله تعالى: (ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً) وقوله: (وليستعفف الذين لا يجدون نكاحًا حتى يغنيهم الله من فضله).

وواضح من هذا كله أن القصيدة منتحلة، وهي لا تتفق في شيء ونفسية الأعشى، وما كان ليسمع القرآن ويؤمن بتعاليمه على هذا النحو، ثم ينصرف عن رسوله الكريم وهديه. ونحن لا نشك فقط في هذه القصيدة، بل نشك كذلك في القصائد الأخرى التي تردد معاني الإسلام ومثاليته الخلقية أو تردد بعض المعاني المسيحية. وبهذا القياس نتهم قصيدته رقم ٥ لقوله فيها يمدح قيس بن معد يكرب الكندي:

وما أيلبى علـــى هيكـــلٍ بناه وصلب فيه وصـــارا[1].

يراوح من صلوات الملـــيـ ـك طورًا سجودًا وطوراً جـؤارا[2].

بأعظم منه تقي في الحســـاب إذا النسمات نفضن الغبـــارا

وواضح أنه يصفه بالتقوى وأنه يراقب ربه، ويقول إن الراهب الذي يصلب له في هيكله ويصلى له ساجدًا ويتضرع ليس أعظم منه تقوى وخشية، حين تهب الريح اللينة نافضة للغبار. وقد نظم منتحلها قوله تعالى: "فإنه يعلم السر وأخفى" فقال:

عطاء الإلـــــه فـــإن الإلـــ ـه يسمع في الغامضاتِ السرارا

ومثلها القصيدة رقم ١٥ التي أنشد فيها منتحلها قسمه بثوبي راهب اللج فقال:

وإني وثوبي راهبِ اللـــج والتـــي بناها قصى والمضاض بن جرهـــم[3].

وحقًا أنه أضاف إلى ثياب الراهب القسم بالكعبة، ولكن مما يزيد الشبهة في القصيدة أننا نجد فيها هذا البيت، يهجو به خصمه:

وما جعل الرحمن بيتك فـــي العـــلا بأجياد غربي الفنـــاء المحـــرم[1].

---

(١) أيبلي: راهب. الهيكل: موضع في صدر الكنيسة توضع فيه القرابين. صلب: صور الصليب بيده. صار: سكن.

(٢) الجؤار: التضرع بالدعاء.

(٣) اللج: غدير عند دير هند. ويريد بثوبيه أعماله الصالحة ومعروف أن أمر الكعبة. كان إلى جرهم ثم صار إلى قصى.



obeikandl.com

ولم تشع كلمة الرحمن بين الشعراء إلا في الإسلام أخذًا من قوله تعالى: (بسم الله الرحمن الرحيم)، وقد دارت في القرآن الكريم. ونقف نفس الموقف من القصيدة رقم ٢٣ للبيت الذي مر بنا والذي يقسم فيه بالمسيح وضرب الراهب للناقوس، ومما لا شك فيه أن قوله في قصيدة النعمان رقم ٢٨:

فلا تحسبني كافرًا لــك نعمــةً  على شهيد شاهد الله فاشهــد

مما يضعفها، لأنه يلخص فكرة الملائكة الشاهدين المعروفة في الإسلام وقد شك ابن قتيبة في القصيدة رقم ٣٥ وبها بيت القدر الذي أنشده يحيى بن متى فيما أسلفنا. وتكاد تكون القصيدة رقم ٦٦ في كثير من أبياتها نظمًا لمواد قرآنية على هذه الشاكلة:

وربك لا تشرك به إن شركــه  يحط من الخيرات تلك البواقيــا

بل الله فاعبد لا شريك لوجهــه  يكن لك فيما تكدح اليوم راعيــا

وقد مضى واضعها يدعو إلى تقوى الله وصلة الرحم ورد الأمانات إلى أهلها والتعفف عن الجارة، ويقول محذرًا من معصية الله: "فإنك لا تخفي على الله خافيًا" ويقول أيضًا: "كفي بكلام الله عن ذاك ناهيًا". فلا شك في أن هذه القصيدة إسلامية. على أنها تلفتنا إلى شيء مهم، وهو أن الأعشى أضيفت إليه أشعار تذهب مذهب العظة والاعتبار، ولا نرتاب في أن يحي بن متى لعب في ذلك دورًا كبيراً، وقد تبعه القصاص والوعاظ المسلمون يزيدون في النسيج خيوطًا، فإذا الأعشى كأنه واعظ من وعاظ الكوفة، يتحدث إلى الناس حديث عظة عن الدهر وتقلباته والموت وما طوى من الملوك وأسباب ترفهم ونعيمهم، وكيف يأتي على الناس، فالكل إلى فناء، ولا يبقي سوى وجه ربك ذي الجلال والإكرام. ولا يبدو ذلك في قصيدة من ديوانه أو قصيدتين، بل إنه يجرى في قصائد كثيرة، واقرأ قصيدته ذات الرقم ٢ فإنك ستراه يستهلها بالحديث عن حياة الإنسان وما يلقى فيها من العناء والشقاء بالموت وما ينزل به من الأمراض والأحزان، وكيف أن أحدًا لا يستطيع الفرار من المنية، ويسترسل في الحديث عمن مات من الملوك الأولين. وفجأة

---

(١) أجياد: موضع في بطحاء مكة، والفناء المحرم: حرم مكة.



obeikandl.com

يخرج إلى الحديث عن لذاته. ولعل من الطريف أن القدماء أنكروا القصيدة[1]. ومثلها القصيدة رقم ٤ وفيها يتحدث عن طوافه في البلاد، وقد أنشدنا منها فيما مر البيتين الذين يذكر فيهما أنه زار أورشليم والنجاشي في أرضه، ولكن ليس هذا هو الذي نقف عنده فحسب، فقد مضى يتحدث عن قصة حصن الحضر وتخريب سابور له بجنوده، وينهي قصته تلك بقوله:

وفي ذاك للمؤتسي أسوة ومأرب قفي عليها رم[2].

ويمضي في هذه القصة قصة سد مأرب وخرابه وتشتت حمير في البلاد، متخذًا من ذلك عظة جديدة. وعلى هذا المثال قصيدته رقم ١٣ وفيها يحدثنا عن زرقاء اليمامة وكيف عصاها أهلها ولم يأتمروا بأمرها حين خوفتهم جيوشًا قادمة، هي جيوش حسان تبع، وقدمت الجيوش فجعلت عاليها سافلها وحطمتهم حطمًا، وقد شك القدماء في القصيدة وأنكروها[3]. وليس في القصيدة رقم ١٤ ذكر للملوك الأولين، ولكنها تحمل وصية خلقية بها كثير من الخيوط الإسلامية تجعلها أشبه بموعظة، إذ لا يعد القريب قريب النسب، وإنما هو قريب الود والبر، ويقول إنه ليس عاقًا ولا ذا نميمة، وإنه لا ينتظر من الناس جزاءه وإنما ينتظره من ربه. ومثل هذه المعاني تجعلنا نشك فيها كما نشك في القصيدة رقم ٣٣ وفيها حديث طويل عن فناء الحياة وأن كل شيء فيها إلى زوال، فالكل هالك كما هلك ساسان ملك الفرس ومورق ملك الروم وكسرى شاهنشاه، وهذا عادياء لم يغنه حصنه بتيماء الذي بناه سليمان، ويسهب في وصف الحصن، وكذلك كان أمر النعمان إذ لم تنفعه أمواله ولا ما كان يحبى إليه، فلم ينج من القضاء. ومن هذا النمط نفسه قصيدته رقم ٣٦ التي يقول فيها:

إنما نحن كشيء فاسدٍ فإذا أصلحه الله صلح

ويحدثنا عن هلاك الملوك الأولين مثل عمرو بن هند حديثًا كله عظة واعتبار، فإن الناس هالكون لا محالة، وكذلك يصنع في قصيدته رقم ٣٩، ومثلها رقم ٥٣ أما القصيدة رقم ٥٤ فإنه

---

(١) أنظر الموشح للمرزباني ص٤٩.

(٢) العرم: سيل مشهور.

(٣) المشح ص٤٩.

يتحدث فيها عن قصر ريمان قصر الحميريين الذي تداوله الحبش والفرس وما أصابه من البلى والخراب. وقد أنكر القدماء نسبة المقطوعة رقم ٥٦[١]. إليه كما أنكروا أختها رقم ٦٠ وأشرنا إلى ذلك فيما أسلفنا، وأبيات الأخيرة تختلط بأبيات القصيدة رقم ٧٢ ولذلك كنا نتهمها هي الأخرى، وأنكر القدماء القصيدة رقم ٦٢ وقالوا إنها تختلط بشعر لنابغة بني شيبان[٢]. ونراه في القصيدة رقم ٧٩ يدعو لإياس بن قبيصة أن يجزيه الله جزاء نوح إذ أوحى إليه أن يصنع الفلك ليعصمه من الطوفان. ونلتقي في نهاية الديوان بالقصيدة رقم ٨٢ وهي تلتقي في بعض أبياتها بقصيدة رواها المفضل الضبي في المفضليات لعوف بن الأحوص وهي فيها ذات الرقم ٣٦ ونسب الجاحظ بعض أبياتها في الحيوان إلى مضرس[٣] بن زرارة ابن لقيط.

وليست هذه القصائد وحدها في الديوان هي التي ينبغي أن لا نطمئن إليها، لما يداخلها من الوعظ والمعاني الإسلامية والمسيحية، فقد أضاف إليه الرواة الوضاعون غير قليل من القصائد والأشعار، ويمكننا معرفة وضعها من عرضها على تقاليد الشعر الجاهلي وأسلوب الأعشى نفسه في مطولاته التي لا يعتورها الشك. وقد تأخذ القصيدة شكلاً قصصيًا غير مألوف لدى الشعراء الجاهليين. وإذا أخذنا نقرأ في الديوان على هذه الأسس وجدنا غير قليل من القصائد يستوقفنا، من ذلك القصيدة رقم ١٢ لما يصور فيها من قصة عماه وقائده، وتدل رحلاته الكثيرة أنه كان ضعيف البصر ولم يكن مكفوفًا، ومثلها القصيدة رقم ٢٠ للين أسلوبها وضعفه، وهو أشبه بأساليب العباسيين. ونراه في القصيدة رقم ٢٥ يسوق في تفصيل قصة السموأل وما كان من إيداع امرئ القيس عنده مائة درع قبل رحيله إلى قيصر وحصار الحارث بن ظالم أو الحارث الغساني له حتى يأخذها وتحصنه منه بحصنه، ومفاجأته له بأحد أبنائه، وكان يصطاد، وقوله له إما أن تسلم الأدراع إلى وإما أن أقتل ابنك، وأبي السموأل أن يسلم الأمانة وفاءً، وقتل الحارث ابنه تحت عينه. وهي قصة مشكوك في أصلها، ويزيدها شكًا في قصيدة الأعشى أنه رواها مفصلة بصورة تدل على أنها موضوعة، وربما وضعها أحد أولاد السموأل في الإسلام، ومن أجل ذل نشك في القطعة رقم

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٦٦ وأنظر الديوان ص٢٠٤.

(٢) الديوان ص٢٠٨.

(٣) الحيوان ٥/ ٧٨.

٢٤ التي تقدم لها. وإذا تقدمنا في الديوان وأعدنا النظر في القصيدة رقم ٣٩ التي اتهمناها لما فيها من حديث عن هلاك القرى والأمم لاحظنا أنها تتضمن في نحو عشرين بيتًا قصة غزلية، يصور لنا فيها كيف بعث لصاحبته رسولاً شيطانًا لا يخشى الرقباء، وكيف تخلص إليها هذا الرسول فنازعها الحديث مخافتًا، حتى إذا أنكرته ظل يغويها حتى أسلس له قيادها، فشاورها متى يأتيها الأعشى وكيف يدخل إليها، ويحدثنا أنه ألم بها وقد غفل الرقباء، وبات إلى جنبها لا يفصلهما حجاب، ويمضي فيصف مبيته عندها وصفًا صريحًا. وليس من ريب في أن هذه القصة تعلن بدورها عن انتحال القصيدة وأنها موضوعة، ولكن ليس هذا ما نريده، إنما نريد أن نقول إنه ينبغي أن نشك فيما يجرى مجرى هذه القصيدة المنتحلة وقصتها الغزلية. ومن أجل ذلك كنا نشك في القصيدة رقم ٥٢ وخاصة أنها غزل ووصف خالص، وليس لها موضوع من مديح أو فخر أو هجاء كما تعودنا عنده، ومما يزيدنا شكًا فيها استرساله في الخيال مع كل ما يشبه صاحبته به، وخاصة حين شبه مذاق ريقها بطعم الزنجبيل والتفاح ممزوجين بعسل النحل، فقد أخذ في وصف من يشتار العسل ويجنيه، ولم يكن العسل واشتياره مما تعرف به قيس بن ثعلبة في الجاهلية، إنما كانت تعرف به هذيل. ونقف نفس الموقف من القصيدة رقم ٥٥ لكثرة ما فيها من ألفاظ فارسية، وكلك القصيدة رقم ٦٣ لأنها تفتقد الغرض الواضح، وكأن من نحلوها الأعشى أرادوا بها أن يجروا على لسانه حديثه عن أسفاره البعيدة إلى الغساسنة في الشام وبني الجلنداء في عمان وغيرهم. وليس في القصيدتين رقمي ٦٤ و٦٥ غرض واضح إنما فيهما غزل وخمر أو غزل ووصف، ولذلك كنا نشك فيهما كما نشك في القصيدة رقم ٧٦؛ لأنها كما يقول روايتها في مديح قيس بن معد يكرب، وليس له فيها سوى ثلاثة أبيات في مطلعها ثم تمضي القصيدة في الغزل والخمر، وهي صورة معكوسة للصورة الطبيعية عنده، إذ يبدأ بالغزل، ثم يطيل في المدح. ونحن نشك أيضًا في القصيدة التي تليها برقم ٧٧ لا لغزلها الماجن فحسب، بل لأن هذا الغزل يستنفد منها ٢٤ بيتًا، ويليه وصف للناقة في ٣ أبيات وفخر لا يتجاوز ٥ أبيات. ومثلها القصيدة رقم ٧٨ إذ نراه يصور فيها لهوه ومجونه في ٢٢ بيتًا، ثم يترك لممدوحه ٥ أبيات. ومثلهما القصيدة رقم ٨٠ وهي غزل خالص أودع في أسلوب ركيك. أما القصيدة رقم ٨١ فاعتذار لعلقمة بن علاثة أجراه الوضاعون على لسانه

حتى يمحوا هجاءه المقذع فيه، وما كان ليهجوه في قصيدتين مطولتين ويدور هجاؤه له في العرب ثم يعتذر له بستة أبيات.

وإذا أضفنا إلى هذه القصائد التي شككنا فيها مقطوعاته القصيرة التي لا تتجاوز أحيانًا بيتًا والتي لا نستطيع أن نقيم عليها مراصد نمتحنها بها لقصرها وهي ذوات الأرقام ٣١، ٣٧، ٤١، ٤٢، ٤٣، ٤٤، ٤٥، ٤٦، ٤٧، ٤٨، ٤٩، ٥٠، ٥١، ٥٧، ٥٨، ٥٩، ٦١، ٦٧، ٦٩، ٧١، ٧٤، ٧٥ استطعنا أن ندرس ما بقي له دراسة نطمئن إليها على الأقل بعض الاطمئنان. ولم يبق له قليل بعد هذا الفحص للديوان، بل إنه كثير، إذ يتضمن القصائد ذوات الأرقام: ١، ٣، ٦، ٧، ٨، ٩، ١٠، ١١، ١٦، ١٨، ١٩، ٢١، ٢٢، ٢٦، ٢٧، ٢٩، ٣٠، ٣٢، ٣٤، ٣٨، ٤٠، ٦٨، ٧٠، ٧٣. على أن أعلاها ثقة هي القصائد ذوات الأرقام ١، ٦، ١١، ٢٩، ٣٤؛ لأن الشارح أسند الأولى والاثنتين الأخيرتين إلى أبي عبيدة كما أسند الثانية والثالثة إلى أبي عمرو بن العلاء، فتلك القصائد إذن من رواية البصرة التي نرفعها على رواية الكوفة في التوثيق. على أننا نضرب صفحًا عما ألحقه جاير ناشر الديوان به من أبيات وأشعار وجدها تنسب للأعشى في بعض الكتب، إذ بمجرد النظر فيها نعرف خطأ نسبتها إليه أو على الأقل خطأ نسبة الكثير الأكثر منها.

٤

## شعـره

يمتاز الأشعى بكثرة قصائده الطويلة، كما يمتاز بكثرة تصرفه في فنون الشعر من مديح وهجاء وفخر ووصف وخمر وغزل. أما المديح فقد قالوا إنه أول من سأل بالشعر واستجدى بالقريض[١] واتخذه متجرًا يطوف به البلاد[٢]، وحقًا سبقه غير شاعر إلى المديح كزهير والنابغة، ولكن أحدًا منهم لم يحرص على الاستعطاء وطلب النوال كما حرص الأعشى فقد طاف في أطراف الجزيرة العربية يمدح السادة والأمراء، ذاكرًا ما يفيضون عليه من الإبل والجياد والإماء وصحاف الفضة وثياب الخز والديباج، منوهًا في أثناء ذلك بسؤاله لهم، غير مبق على شيء من نفسه. ومعاني المديح عنده لا تفترق عن المعاني العامة في مدائح الجاهليين، فهو ما ينى يمدح بالكرم والشجاعة والوفاء وعون الضعفاء في القبيلة، وكثيرًا ما يعرض لجيوش ممدوحه إذا كان أميرًا أو شيخًا لقبيلته مصورًا ما تنزله على الأعداء من التقتيل والنكال، وقد يطيل في وصف ما تشنه من غارات على الأعداء، وفي تضاعيف ذلك يورد على ممدوحه ثناء مفرطًا.

ومن أهم ما يميز مديحه بالقياس إلى الجاهليين كثرة إسرافه فيه، ولا نقصد الإسراف في الأوصاف من حيث هي وإنما نقصد الغلو فيها والإفراط، بحيث يُعد مقدمة لمبالغات العباسيين في مدائحهم، وقد يكون ذلك من أثر رغبته الشديدة في العطاء، وقد يكون من أثر الحضارات التي ألم بها في طوافه، وهذا هو معنى ما نقوله من أنه يشبه العباسيين، فذوقه في المديح يقترب من ذوقهم وما نعرفه عندهم من غلو دفعهم إليه ملق الخلفاء والوزراء بنفس الباعث الذي بعث الأعشى على إفراطه في مديحه، ونقصد طلب النوال والعطاء الجزيل. واقرأ له هذه القطعة من مديحه لقيس بن معد يكرب إذ يقول:

وسعى لكندة سعي غيـــر مواكـــلٍ ... قيس فضر عدوها وبنى لهـــا

---

(١) ابن سلام ص٥٤.

(٢) العمدة لابن رشيق (الطبعة الأولى) ١/ ٤٩.

وأهان صالح ماله لفقيرهـــا وأسى وأصبح بينها وسعى لهـا[1].

فترى له ضرًا علـــى أعدائـــه وترى لنعمته على من نالهـــا

أثرًا من الخير المزيـــن أهلـــه كالغيث صاب ببلدةٍ فأسالهـا[2].

وإذا تجئ كتيبـــة ملمومـــة خرساء يخشى الدارعون نزالهـا[3].

كنت المقدم غير لابـــس جنـــةٍ بالسيف تضرب معلمًا أبطالهـا[4].

وعلمت أن النفس تلتقي حتفهـــا ما كان خالقها المليك قضى لهـا

فإنك تحس فيه روح العصر العباسي، لا من حيث سهولة اللفظ فحسب، ولا من حيث المقابلة بين المعاني فحسب، بل من حيث ما يجرى في ذلك من أثر رقة الذوق بتأثير الحضارة، وهي رقة دفعته إلى الغلو في وصف شجاعة ممدوحه، فإذا هو لجرأته وبسالته يقتحم ميادين الحرب بدون ترسٍ يحميه، وبيده سيفه يضرب به في الأقران تاركًا فيهم آثاره، وقد آمن بينه وبين نفسه بأن الإنسان لابد أن سيموت، فلا داعي للخوف، فلكل امرئ أجل مضروب، لا يتأخر عنه ولا يتقدم. واقرأ له هذه القطعة في مديحه لهوذة بن على سيد بني حنيفة:

إلى هوذة الوهاب أهديت مدحتـــي أرجى نوالاً فاضلاً مـــن عطائكـــا

سمعت برحب الباع والجود والندى فتى فأدليت دلولي فاستقت برشائكـــا[5].من

يحمل الأعباء لو كان غيـــره لناس لم ينهض بها متماسكـــًا

وأنت الذي عودتني أن تريشنـــي وأنت الذي آويتني في ظلالكـــا[6].

---

(١) أسى: داوى.

(٢) صاب المطر: سقط وانصب.

(٣) ملمومة: مجتمعة. خرساء: لا يسمع لها صوت من كثرة الدروع أي ليس لها قمقمة.

(٤) الجنة: الترس.

(٥) الباع: الكرم وكذلك الندى. الرشاء: حبل الدلو.

(٦) تريشني: تعينني وتغنيني.



obeikandl.com

وإنك فيما نابني بي مــوزع ... بخيرٍ وإني مولـع بثنائكـا[1].

وجدت عليـا بانيًا فورثتــه ... وطلقًا وشيبان الجــواد ومالكا[2].

بحور تقوت الناس في كل لزبـةٍ ... أبوك وأعمام هــم هؤلائكا[3].

وما ذاك إلا أن كفيــك بالنـدى ... تجودان بالإعطاء قبـل سوالكـا

يقولون في الأكفاء أكبر همــه ... ألا رب منهم من يعيش بمالكـا[4].

وجدت انهدام ثلمــةٍ فبنيتهـا ... فأنعمت إذا ألحقتها ببنائكـا[5].

وربيت أيتامًا وأنعشــت صبيــة ... وأدركت شأو السبق دون عنائكـا[6].

ولم يسع في العلياء سعيك ماجـد ... ولاذو إني في الحي مثل إنائكـا[7].

فإنك تحس المبالغة في المديح واضحة، وهو يمزجها بالتبذل في السؤال تبذلاً لم يعرف في عصره، وكل ذلك واضح فيه رقة اللهجة وأن الأعشى من ذوق يخالف ذوق الجاهليين، وهو ذوق جاءه من طول اختلاطه بأهل الحضر.

ولا نشك في أن هذا الذوق هو الذي جعله في أهاجيه ينحو نحو السخرية من مهجوه في كثير من شعره، وكأنما يجد فيه مرارة أشد وألذع من مرارة الهجاء المقذع، واقرأ معلقته أو قصيدته السادسة في الديوان التي وجه بها إلى يزيد بن مسهر الشيباني، وكان قد قتل أحد بني قيس بن ثعلبة رجلاً من قومه، فحمسهم للثأر لقتيلهم، فتعرض له الأعشى يهدده ويهجوه مستهلاً تهديده وهجاءه بقوله:

---

(١) هكذا رواية البيت في المخطوطة اليمنية وهو مضطرب في الديوان. موزع: مولع.

(٢) واضح من الشطر الثاني أن مالكا وشيبان وطلقًا أعمام هوذة.

(٣) لزبة: شدة وأزمة.

(٤) يريد بالشطر الأول أن ممدوحه يتهم بأنه يظلم أكفاءه.

(٥) الثلمة: فرجة المهدوم أو ما فيه من شقوق.

(٦) هكذا رواية البيت في المخطوطة اليمنية وبه بعض الاضطراب في الديوان.

(٧) إني: مقصور إناء.



obeikandl.com

أبلغ يزيد بني شيبان مأكلــة ... أبا ثبيتٍ أما تنفك تأتكــل[1].

ألست منتهيًا عن نحت أثلتنــا ... ولست ضائرها ما أطت الإبــل[2].

كناطحٍ صخــرة يومًا ليوهنــا ... فلم يضرها وأوهي قرنه الوعــل[3].

وواضح أنه يوبخه ساخرًا منه مزدريًا له، إذ يقول: يا أبا ثبيت أما تنفك تسعى بالشر والفساد وتقع في أعراضنا بالذم والقدح؟ ألست منتهيًا عن ذمنا وتنقصنا؟ وإنك مهما أتيت من قوارع الطعن لن تضر أصلنا الشامخ مدى الدهر، وما مثلك إلا كمثل وعل ينطح صخرة ليضعفها، فاستعصت عليه ولم يضرها ولم يوهنها إنما ضر قرنه وأوهنه. وأرجع إلى قصيدتيه اللتين يهجو بهما علقمة بن علاثة، فستجده يعمد إلى هذا اللون من السخرية المرة بعلقمة، إذ يقول له في أولاهما موازنًا بينه وبين خصمه ومنافره عامر بن الطفيل:

علقم ما أنت إلــى عامــر ... الناقض الأوتــار والواتــر[4].

يا عجب الدهر متــى سويــا ... كم ضاحكٍ من ذا وكم ساخــر

ولست بالأكثر منهــم حصــى ... وإنمــا العــزة للكاثــر[5].

علقم لا تسفــه ولا تجعلــن ... عرضــك للــوارد والصــادر

ولست في السلم بــذي نائــلٍ ... ولست في الهيجــاء بالجاســر[6].

وهذا من أشد الهجاء وأمضه، ولو أنه شتم وأفحش لعد سفيهًا، أما أن يهجو على هذا النحو من التعريض فإنه يجعل الظنون تتسع كما يجعل النفوس تتعلق بمعنى كلامه وتكثر من تأويله. وهو يشير في الأبيات إلى حكم هرم بن قطبة حين تنافر إليه علقمة وعامر، فسوى بينهما في عبارته

---

(١) مأكلة: رسالة. تأتكل: تسعى بالشر أو تغضب وتإلى حتى لكأنك تأكل نفسك.

(٢) الأثلة: شجرة. ونحت أثلته: تنقصه وعابه. أطت: أنت. ويريد بقوله ما أطت الإبل التأبيد.

(٣) الوعل: ضرب من الماعز الجبلي.

(٤) الأوتار: جمع وتر وهو الثأر. وناقضها: الآخذ بثأره. الواتر: الذي يترك ثأره في الأعداء فلا يستطيعون نقضه.

(٥) الحصى هنا: العدد.

(٦) النائل: العطاء. الجاسر: الجرئ.

المأثورة: "إنكما كركبي البعير الأردم (الفحل) تقعان على الأرض معًا" والأعشى يرد هذا الحكم وينقضه قائلاً: أين الثري من الثريا. وقد مضى في القصيدة الثانية يذمه، ولم يكن من أبياتها بيت أشد إيلامًا لعلقمة من قوله:

تبيتون في المشتى مـــلاء بطونكـــم وجاراتكم غرثي يبتـن خمائصـــا[1].

حتى لقد زعم الرواة أنه بكى حين سمعه. وواضح أنه لم يجعله بخيلاً فحسب، بل جعله هو وعشيرته يملأون بطونهم ويتخمون في ليالي الشتاء الباردة على حين يشتد كلب الجوع والمسغبة على جاراتهم. وأختار النساء لينزع من قلوبهم كل عطف ورحمة، فهم ليسوا بخلاء فحسب، بل إن قلوبهم لأشد قسوة من الحجارة. واستمع إليه يسخر من كسرى قبل وقعة ذي قار:

واقعد عليك التاج معتصبـًا بـــه لا تطلبن سوامنـــا فتبعـــدا[2].

وفي كلمة "اقعد" من الهجاء ما يفوق كل إقذاع، إذ يستخف به وبجيوشه التي يعدها لقتالهم وقتال شيبان، وكأنه يلوح له أنه إن هاجمهم مني بهزيمة تطيح بتاجه. ولعلنا الآن نفهم ما كان يقال عن الأعشى من أنه "إذا مدح رفع وإذا هجا وضع"، فهو إذا مدح غالي في مدحه حتى رفع ممدوحه على جميع الناس، وإذا هجا أوجع لا بالشتم والهجاء المقذع وإنما بالتهكم والسخرية والاستهزاء.

والأعشى كثير الفخر في شعره بقبيلته وعشيرته، وهو يجمع لهما ضروب المفاخر والمناقب التي كانوا يعتزون بها في الجاهلية من الجود في الجدب والشجاعة في الحرب والرعي في المكان المخوف وإغاثة المستصرخ. وكثيرًا ما يضمن هجاءه لمن يختلف معهم من قبيلته الكبرى بكر وقبيلته الصغرى قيس بن ثعلبة فخرًا مدويًا، كقوله في معلقته التي أشرنا إليها آنفًا متوعدًا يزيد بن مسهر الشيباني ومفتخرًا بشجاعة قبيلته وما أنثخنت في القبائل من جراح:

سائل بني أسدٍ عنا فقد علمـــوا أن سوف يأتيك من أنبائنا شكـــل[3].

---

(١) المشي: زمن الشتاء. غرثى: جائعة. خمائص: ضامرات البطون.

(٢) السوام: الإبل الراعية ويقصد بها الأعشى ديار العرب. تعبد: تصبح كالعبد، يريد أنه يهزم ويقهر.

(٣) شكل: أزواج مختلفة يريد خبرًا من بعد خبر.

واسأل قشيرًا وعبد الله كلهـــم  واسأل ربيعة عنا كيف نفتعـــل[1].

إنا نقاتلهم حتى نقتلهـــم  عند اللقاء وهم جاروا وهم جهلـــوا

لئن منيت بنا عن غب معركـــةٍ  لم تلفنا من دماء القوم ننتفـــل[2].

قد تخضب العير من مكنون فائلـــه  وقد يشيط على أرماحنا البطـــل[3].

نحن الفوارس يوم العين ضاحيـــة  حنبى فطيمة لا ميل ولا عـــزل[4].

قالوا الركوب فقلنا تلك عادتنـــا  أو تنزلون فإنا معشر نـــزل[5].

وقد ذهب بعض القدماء إلى أن البيت الأخير أشجع بيت لما صور فيه الأعشى قومه وأنهم يحسنون الطعان فرسانًا كما يحسنون الضراب راجلين منوهًا بأن تلك سجية لهم درج عليها شيوخهم وشبابهم.

ونراه يكثر من وصف الصحراء وناقته، وهذا طبيعي لكثرة رحلاته وأسفاره، وهو في هذا الموضوع يجري على عادة الجاهليين، فيصور الأودية وما يجري فيها من ظلام أو سموم أو مياه أمطار كما يصور طرقها الوعثة ورمالها ومناهلها ووحشتها وعزيف الجن ليلاً بها، يقول في معلقته:

وبلدةٍ مثل ظهر الترس موحشـــةٍ  للجن بالليل في حافاتها زجـــل[6].

لا يتنمى لها بالقيظ يركبهـــا  إلا الذين لهم فيما أتوا مهـــل[1].

---

(١) تفتعل هنا: نفعل العظائم.

(٢) غب: عقب، يقصد أنهم لا يتعبون من لقاء الأعداء، فإن لقيهم بعد معركة فسيجدهم على أتم استعداد للقـاء. ننتفـل: ننتفي، ويروي ننتقل.

(٣) العير: حمار الوحش استعاره للفارس لأن العير يتقدم الأتن: الفائل: القناة الدموية كالشريان. يشيط: يهلك.

(٤) يوم العين: يوم كان بين بني قيس بن ثعلبة وشيبان بجنب موضع في البحرين يـسمى فطيمـة. ميـل: جمـع أميـل وهـو الجبان. عزل: جمع أعزل: من لا سلاح له.

(٥) يريد بالنزول التضارب بالسيوف.

(٦) البلدة: القطعة من الأرض. وشبهها بالترس لبيان أنها غليظة وصعبة على مـن ينفـذ فيهـا. موحـشة: كثـيرة الـوحش. زجل:صوت حافاتها: نواحيها.

جاوزتها بطليحٍ جسرةٍ ســـرحٍ  في مرفقيها إذا استعرضتها فتـل[٢].

وواضح أنه في هذه الأبيات يفخر بتحمله لمشقات السفر في مثل هذه الأرض الوعرة الصلبة الموحشة التي لا يسمع فيها صوت سوى صوت الجن والتي لا يركبها في حمارة القيظ واشتعال الرمال إلا من تعود الصبر واحتمال المكاره، ويقول إنه يقطع مثل هذه الأرض بناقة نضو أسفار ضامرة موثقة الخلق صلبة قوية. وهو لا يطيل في وصف أعضاء الناقة صنيع طرفة، بل يقتضب الحديث عنها غالبًا، ويكثر حين يلم ببيان سرعتها أن يشبهها بحمار وحش أو ثور أو نعامة، ويطيل في وصف ما يلم به منها على عادة الجاهليين. واقرأ هذه القطعة:

وفلاةٍ كأنها ظهـــــر تـــرسٍ  ليس إلا الرجيع فيهـــا عـــلاق[٣].

قد تجاوزتها وتحتـــى مروح  عنتريس نعابـــة معنـــاق[٤].

عرمس ترجم الإكـــام بأخفا  ف صلابٍ منها الحصى أفـــلاق[٥].

وكأن القتود والعجلـــة الوفـــ  ـراء لما تواهق الســـواق[٦].

فوق مستبقلٍ أضر بـــه الصيـــ  ـف وزر الفحول والتنهـــاق[٧].

أو فريدٍ طاو تضيـــف أرطا  ـة عليه من الغصـــون رواق[٨].

أخرجته شهباء مسبلـــة الود  ـق رجوس قدامها فـــراق[١].

---

(١) يتنمى: يرتفع. القيظ: شدة الصيف. مهل: أناة وصبر.

(٢) طليح: مهزولة لكثرة أسفارها. جسرة: ضخمة. سرح: سريعة. فتل: قوة وصلابة.

(٣) الرجيع: ما تجتره من طعامها. العلاق: ما تطعمه الإبل من الشجر.

(٤) مروح: نشيطة. عنتريس: صلبة. نعابة: تمد عنقها في سيرها. معناق: من العنق وهو سير واسع للإبل.

(٥) عرمس: صلبة. الإكام: المرتفعات.

(٦) القتود: الرحل بأدواته. العجلة: المزادة، وهي قربة الماء. الوفراء: كثيرة المياه. السواق: طويل الساق. تواهق: مد عنقه في السير. وتلك رواية المخطوطة اليمنية، والبيت في الديوان مضطرب.

(٧) مسبقل: حمار وحش يأكل البقل، زر: طرد وعض.

(٨) فريد: منفرد، ويقصد ثور الوحش. طاو: جائع. الأرطاة: من أشجار البادية رواق البيت: شقته التي دون شقته العليا. وتلك رواية المخطوطة اليمنية.

وتعادي عنه النهـــار تواريـــ ـه عراض الرمال والـــدرداق[٢].

وتلته غضف طـــوارد كالنحـــ ـل مغاريث همهن اللحـــاق[٣].

وهو يصور فيها فلاة مقفرة، لا تجد فيها الإبل ما تأكله سوى الاجترار، ويقول إنه تجاوزها بناقة نشيطة قوية مسرعة سرعة شديدة، كانت ترجم المرتفعات بأخفافها الصلبة، فتشق ما فيها من حصى شقا وسرعان ما يشبهها في سرعتها بحمار وحش، يقاسي من لظى الصيف وعض أمثاله وتنهاقها عليه، فهو يسرع لا يلوي. ولا يمضي طويلاً مع هذا الحمار، بل يتركه إلى ثور وحش يشبه به ناقته، ويصوره طاويًا في ليلة من ليالي الشتاء القاسية، وقد بات مستظلاً بأغصان أرطاة، والمطر يسقط من حوله والفزع يأخذه من كل جانب، ولم تلبث نفسه أن راودته على الخروج من كناسه، فخرج يتوارى في عراض الرمال وكثبانها، ولم تلبث كلاب الصيد أن رأته فأسرعت تحاول اللحاق به، وأسرع يحاول فوتها. والأعشى يشبه ناقته به وهي تترامى فوق الرمال مسرعة كأنما شيء يطلبها.

وتتكرر مثل هذه الصورة لا عند الأعشى وحده، بل عند جميع شعراء الجاهلية، إذ يشبهون الناقة بوحش الفلاة، وخاصة حين يناضل كلاب الصيد، وإن كنا نلاحظ أن الأعشى لا يطيل في تصوير ذلك إطالة النابغة أو لبيد أو غيرهما من الجاهلين، وربما جاءه ذلك من ذوقه المتحضر، فكان يوجز في وصف الصحراء والناقة والحيوانات الوحشية، على حين كان يتسع في الحديث عن الخمر والغزل.

وحقًا نجد عند الجاهليين تعرضًا كثيرًا للخمر، ولكنهم عادة يسوقونها مع الحديث عن فتوتهم وكرمهم وبذلهم، على نحو ما نرى في معلقة طرفة، أما عند الأعشى فإننا نجدها في فاتحة ثيرة من قصائده تالية لبعض غزله، ونحس كأنها لذته من الدنيا، فهو يطيل الحديث عنها وعن تأثيرها في

---

(١) شهباء: سحابة بيضاء يصدعها سواد. مسبلة: مرسلة. الودق: المطر. رجوس: مرعدة. فراق: جمع فارق وهي السحابة المنفردة.

(٢) تعادي: تباعد. الدرداق: دك متلبد من الرمال.

(٣) الغضف: كلاب الصيد مسترخية الآذان. مغاريث: جائعة.

نفوس شاربيها، وكأنه يقدسها تقديسًا، فهي وثنه وصنمه، ولذلك لم يكد يسمع من قريش- كما أسلفنا- أن الرسول صلى الله عليه وسلم يحرمها حتى كف عن لقائه وانصراف لساعته.

وهو يجيد وصفها إجادة لفتت القدماء إليه، فقالوا إنه أشعر الجاهليين إذا طرب[1]، يقصدون إذا شرب الخمر ووصفها، وهو وصف يفيض بالحيوية، إذ يجسم فيه بيئتها ومجالسها وما ينثر فيها من الورود والرياحين وما يقوم فيها من السقاة والمغنين والإماء الخليعات اللائي يلبسن الشفوف الرقيقة وما يضرب عليه العازفون من آلات طرب كالصنج والعود، واستمع إليه يقول في معلقته:

وقد غدوت إلى الحانوت يتبغنـــي ... شاوٍ مشل شلول شلشل شول[2].

في فتيةٍ كسيوف الهند قد علمـــوا ... أن ليس يدفع عن ذي الحيلة الحيل

نازعتهم قضب الريحان متكـــئًا ... وقهوة مزة راووقها خضل[3].

لا يستفيقون منها وهي راهنـــة ... إلا بهات وإن علوا وإن نهلوا[4].

يسعى بها ذو زجاجاتٍ له نطـــف ... مقلص أسفل السربال معتمل[5].

ومستجيبٍ تخال الصنج يسمعـــه ... إذا ترجع فيه القينة الفضل[6].

والساحبات ذيول الخـــز آونـــة ... والرافلات على أعجازها العجل[7].

---

(١) أغاني ٩/ ١٠٨.

(٢) غدوت: ذهبت. شاو: يشوي اللحم. ومعنى مشل شلول شلشل شول أنه خفيف الحركة نشيط.

(٣) قضب: جمع قضيب وهو الغصن، القهوة: الخمر. الراووق: الوعاء الذي تروق فيه الخمر. خضل: نـدى، كنـى بـذلك عن اتصال شربهم.

(٤) علو: من العلل وهو الشرب بعد الشرب تباعًا، نهلوا: من النهل، وهو أول الشرب. إلا بهات: إلا بمقدار قولهم هات.

(٥) ذو زجاجات: يريد الساقي. نطف: جمع نطفة وهي القرط به لؤلؤة صافية. مقلص أسفل الـسربال: قـصير القمـيص. معتمل: مطبوع على العمل والنشاط.

(٦) المستجيب: العود ذو الأوتار لأنه يجيب صاحبه كما يجيب الصنج وهو الآخر من آلات الطرب. وجعل الصنج يسمعه كناية بذلك عن اتساق ألحانها. القينة: الأمة المغنية. الفضل: اللابسة ثوبًا واحدًا.

(٧) العجل: جمع عجلة بكسر العين وسكون الجيم وهي قربة الماء.



obeikandl.com

من كل ذلك يوم قد لهوت بـــه وفي التجارب طول اللهو والغزل

وهو يصف في الأبيات يومًا من أيام لهوه غدا فيه إلى خمار مع رفيق ناشطٍ خفيف الحركة طيب النفس في فتية كسيوف الهند مضاء وقوة ورونقًا. ويقول إنهم تجاذبوا أغصان الريحان وخمرة مزة ما زالوا يتعاطونها، فراووقها لا يجف، وهم لا يسأمون من تعاطيها ولا يفيقون من شربها إلا ليقولوا للساقي: هات، ويكررون هذه اللفظة مهما شربوا. ويصف الساقي بأنه غلام أو شاب حدث، كان يعلق في أذنه قرطًا ويلبس قميصًا قصيرًا، وقد طبع على العمل بجد ونشاط. ويضيف إلى ذلك وصف عود كانت ألحانه تتسق مع صنج كانت تعزف عليه وتغنى قينة في ثوب واحد رقيق، ومن ورائها نساء ترفل في ثياب الخز والحرير، وقد علت أعجازهن كأنها قرب ممتلئة، فهي تهتز وترتج. ويختم أبياته بأنه تمتع بكل ذلك ولها به وحربه مرارًا وتكرارًا.

والأعشى لا يصف مجالس الخمر فحسب، بل يصف وصفًا دقيقًا أوانيها وألوانها وما تفعله بعقول شاربيها وما تحدث في قلوبهم من نشوة، مما يدل على أنه كان مشغوفًا بها مفتونًا، بل سكيرًا مغرقًا في السكر، وهو في ذلك يقترب من ذوق جماعة المجان في العصر العباسي أمثال أبي نواس، وفي الوقت نفسه يفترق من ذوق معاصريه الذين لم يكونوا يسرفون على أنفسهم إسرافه في اللهو والمجون. ولا نشك في أن هذا جاءه من أثر الحضارات التي ألم بها في الحيرة وغير الحيرة، بحيث تحول مدمنًا لها، يلزم حوانيتها، فإن ولي وجهه نحو منازل قومه حمل منها ما يكفيه هو ورفاقه هناك، فينهلون ويعلون ولا يفيقون، وهو في أثناء ذلك ينشدهم ما ينظمه فيها، وهم يصفقون استحسانًا. ولم يكن يحسن وصفها فحسب، بل كان يضفي عليه حيوية بما يزجه به من قصص على شاكلة قوله:

أتاني يوأمرني في الشمر ل ليلا فقلت لـــه: غادهـــا[1].

أرحنا نباكر جـــد الصبـــو ح قبل النفـــوس وحسادهـــا[2].

فقمنا ولما يصـــح ديكنـــا إلى جونةٍ عنـــد حدادهـــا[1].

(١) يؤامرني: يشاورني. الشمول: الخمر. غادها: انطلق بنا إليها.

(٢) جد: نشاط. الصبوح: خمرة الصباح.

تنخلها من بكـــار القطـــاف ... أزريق آمـــــن إكسادهـــا[٢].

فقلت لـــه: هـــذه هاتهـــا ... بأدماء في حبـــل مقتادهـــا[٣].

فقـــال: تزيدوننـــــي تسعـــةً ... وما ذاك عـــدلاً لأندادهـــا[٤].

فقلـــت لمنصفنـــا: أعطـــه ... فلما رأي حضـــر شهادهـــا[٥].

أضـــاء مظلتـــه بالســـرا ... ج والليل غامـــر جدادهـــا[٦].

دراهمنـــا كلهـــا جيـــد ... فـــلا تحبسنـــا بتنقادهـــا[٧].

فقام فصـــب لنـــا قهـــوة ... تسكننـــا بعـــد إرعادهـــا[٨].

كميتًا تكشف عـــن حمـــرة ... إذا صرحت بعـــد إزبادهـــا[٩].

كحوصلة الرأل فـــي جريهـــا ... إذا جليت بعـــد إقعادهـــا[١٠].

وجـــال علينـــا بإبريقـــه ... مخضب كـــف بفرصادهـــا[١١].

فباتـــت ركـــاب بأكوارهـــا ... لدينـــا وخيـــل بألبادهـــا[١٢].

---

(١) جونة: جرة وخابية. حدادها: خمارها.

(٢) تنخلها: تخيرها. بكار القطاف: أول ما يقطف. أزريق: أزرق العينين. آمن إكسادها: آمن من كسادها لا يخاف.

(٣) أدماء: ناقة بيضاء. مقتادها: غلامها الذي يرعاها.

(٤) أندادها: أمثالها.

(٥) منصف: خادم. حضرك حضور. شهادها هنا: الدراهم.

(٦) مظلته: حانوته أو خباءه. الحداد: الأهداب والأستار.

(٧) تنقادها: نقدها وعدها حتى يتبين زائفها من صحيحها.

(٨) تسكننا: نسكن إليها.

(٩) كميتًا: حمراء. صرحت: ذهب زبدها.

(١٠) الرأل: فرخ النعام. شبه الخمر بحوصلته في الحمرة. جليت: أخرجت، مأخوذ من جلوة العروس. القاعدة، إذا قعدت عن الطلب. وأنظر الحيوان ٤/ ١٤.

(١١) الفرصاد: التوت الأحمر.

(١٢) الأكوار: الرحال. الألباد: جمع لبد وهو قطعة الصوف توضع تحت السرج.



obeikandl.com

ورحنـــا تنعمنـــا نشـــوة تجور بنـــا بعـــد إقصادهـــا[1].

ولا تختلف هذه الأبيات المنتزعة من القصيدة الثامنة في الديوان عن خمريات أبي نواس وأضرابه في شئ، لولا ذكره للأكوار والألباد في نهايتها، ولو حذفنا بيتها لأصبحنا إزاء خمرية عباسية تعتمد على القصص والإطراف به. وهو في أولها يذكر أن فتى طرقه قبل أن يسفر الصباح يدعوه أن يذهبا معًا لتناول الخمر. وذهبا في هزيع الليل الأخير- قبل أن تصبح الديكة وقبل أن يسبقهما أي كاشح حسود- إلى حانوت خمار أعجمي، كني عنه بزرقة العين، وهو خمار حاذق لصنعته، استخلص خمره من بكار القطاف، وهي خمر معتقة ومثلها لا يكسد ولا يبور. وطلبا إليه أن يسقيهما بناقة قاداها إليه، وهي واقفة ببابه مزمومة بحبل غلامها، فلم تكفه وطلب فوقها تسعة دراهم، مشيدًا بخمره وأن هذا الثمن ليس كفؤًا لها، ويقول الأعشى إنه قال لصاحبه: أعطه ما يريد. ويضئ الخمار خباءه أو حانوته، ويعد الدراهم ويتبينها خشية زيفها، حتى إذا اطمأن لها وللأعشى ورفيقه أو رفاقه قام، فناولهم خمرًا تمشت في أجسادهم، فسكنوا إليها، وهي خمر حمراء فاقعة كأنها الفرصاد أو التوت الأحمر، وما يزال صاحبها يسقيهم، وهم بها مشغوفون، حتى انبثقت أضواء الصباح، فنهضوا بركابهم وخيلهم، تستخفهم النشوة استخفافًا خرجوا به عن أطوارهم وما تعودوه في صحوهم من قصد واعتدال.

وأنت تراه قد وصف الخمر ودنها ولونها وخمارها وحانوتها وتعرض لصياح الديكة في السحر ومساومة صاحبها في ثمنها وأثرها في النفس وما تصيب به شاربها من انتشاء يتمشى في المفاصل. وهذه المعاني جميعها تدور فيها وفي أفلاكها خمريات العباسيين. واستمع إليه يقول:

وأدكن عاتقٍ جحـــلٍ سبحـــلٍ صبحت براحه شربا كرامـــا[2].

من اللاتي حملن علـــى الروايـــا كريح المسك تستـل الزكامـــا[3].

---

(١) إقصاد: قصد واعتدال.

(٢) أدكن: هو الدن لأنه يطلى بالقطران. عاتق: قديم. الجحل: السقاء الكبير أو القربة الكبيرة. سبحل: ضـخم. الـشرب: جماعة الشاربين. صبحت: ناولت، وهو خمر الصباح.

(٣) الروايا: جمع راوية وهو البعير.

مشعشعة كـــأن علـــى قراهـــا إذا ما صرحت قطعًا سهامـــًا[1].

تخيرها أخـــو عانـــات شهـــرًا ورجى أولهـا عـامًا فعامـــا[2].

يؤمل أن تكـــون لـــه ثـــراء فأغلق دونهـا وغـلا سوامـــا[3].

فأعطينـــا الوفاء بهـــا وكنـــا نهين لمثلهـا فينـا السوامـــا[4].

كأن شعاع قرن الشمس فيهـــا إذا ما فـت عن فيها الختـــام[5].

وواضح أنه يتحدث عن دن من دنان الخمر أسود عتيق، صبح به رفاقه، ويقول إنه من نادر الدنان التي تجتلب من البلاد البعيدة والتي تنفذ رائحة خمرها بطيبها إلى الأنف، فتستل منه الزكام. ويصف هذه الخمر فيقول إنها مروقة، صافية كأنها بياض الحرا أو سرابه اللامع، وقد انتقاها صاحبها في "دعانات"، وظل يعلق عليها الآمال عامًا بعد عام، مغاليًا في ثمنها، حتى اشتريناها منه، ويصورها وهي تسقط من دنها بشعاع الشمس الوهاج، وهي من الصور التي أكثر العباسيون من تداولها، كما أكثروا من الحيث عن رائحتها ووصف دنانها، ومن قوله في كأس من كئوسها:

وكأسٍ كعين الديك باكـرت حدهـا بفتيان صدق والنواقيس تضرب[6].

سلاف كأن الزعفـران وعندمـا يصفق في ناجودها ثـم تقطـب[7].

وهو يشبهها بعين الديك في صفائها، ويقول إنه باكرها أو باكر سورتها برفاق مخلصين، يشربونها معه في الأديرة على قرع النواقيس، ويحدثنا عن رائحتها وأثرها في نفسه، حتى لتيصورها

---

(١) مشعشعة: مروقة. قرأها: ظهرها. صرحت: صفت. السهام: وهج الصيف وما يكون معه من البياض.

(٢) عانات: بلد بالشام. أولها: ما تؤول إليه من ثمن غال.

(٣) السوام: بكسر السين المساومة في البيع والمغالاة.

(٤) السوام: بفتح السين الإبل الراعية.

(٥) قرن الشمس: أول ما يبدو منها في الصباح. الختام: السداد.

(٦) باكر: شربها في الصباح الباكر. حدها: سورتها وحدتها.

(٧) السلاف: أجود الخمر. العندم: شجر عروقه حمراء يصبغ به. يصفق: يروق. ناجودها: جرتها. تقطب: تمزج.

زعفرانًا أحمر خلط بصبغ العندم، وقد سطعت منه رائحة زكية. وعلى هذا النحو ما يزال يصف الخمر وصف مفتون بها، معلنًا أنه لا يستطيع عنها انصرافًا، فهي كل لذته ومتاعه، يقول:

وكأس شربت علـــى لـــذة وأخرى تداويت منهـــا بهـــا

لكي يعلم الناس أنـــي امـــرؤ أتيت المعيشة مـــن بابهـــا

وما يني يتحدث عن مجالسها وما ينثر فيها من ورود وما يكون فيها من قيان وآلات طرب، بنفس الصورة التي تلقانا عند أصحاب الخمر والمجون في العصر العباسي. ونحن إنما سقنا ما وثقناه من أشعاره، ومن يرجع إلى ديوانه وما رفضناه من قصائده يستطيع أن يلاحظ عبث الرواة بشعره، فقد أجروا على لسانه خمرية تزخر بالألفاظ الفارسية، وكأنه فارسي أبًا وأمًا ممن أتقنوا العربي في العصر العباسي وأتقنوا فن الخمرية بنوع خاص، وهل تفترق قصيدته رقم ٥٥ من قصائد أبي نواس وأضرابه في شئ؟ إنها تكتظ بأسماء الرياحين والأزهار وآلات الطرب الفارسية، ولا يبخل عليه واضعها بذكره لنيل مصر في تضاعيفها وإجرائه على لسان الأعشى بعض ما كان يجرى على لسان أبي نواس ونظرائه من أن صاحبها مجوسي يصلي عليها ويزمزم. فماذا بقى لمجان الفرس في العصر العباسي. وقل ذلك نفسه في قصيدته رقم ٣٦ وقد رفضناها لما فيها من حديث عن هلاك الملوك الأولين، وهي ترفض أيضًا لما فيها من صور خمرية تنبو على ذوق الجاهليين، إذ يوصف زقها الأسود وقد طلى بالقار وطرح على الثري بحبشي نام وانبطح، كما يوصف السكارى وقد تمددوا على الأرض وخذلتهم أرجلهم من غير كسحٍ فلا يستطيعون حراكًا بالحبال الممدودة لصيد بعض الطير.

وإذا تركنا خمره إلى غزله لاحظنا أنه لا يقف طويلاً عند الأطلال صنيع غيره من الجاهليين، بل يأخذ في وصف صاحبته ووصف عواطفه نحوها، وقد يعمد إلى نفس الصورة القصصية المبثوثة في معلقة امرئ القيس، فيتحدث عن مغامراته ووصوله إلى محبوباته من المتزوجات على شاكلة قوله:

فرميت غفلة عينـــه بحوطهـــا حتى دنوت إذا الظـــلام دنا لها

فرميت غفلة عينه عن شاتــه فأصبت حبة قلبــه وطحالها[1].

حفظ النهار وبات عنها غافــلاً فخلت لصاحب لــذةٍ وخلالهــا

فهو يخالس الزوج ويخاتله، حتى يظفر ببغيته. وطبيعي أن يكون غزله ماديًا صريحًا لما رأينا من لهوه وخمره، غير أننا نلاحظ عنده رقة في الغزل وشدة في الوله والتعلق بالمحبوبة، حتى إن روحه لتكاد تسقط من بين جنبيه جزعًا وصبابة، وخاصة حين الوداع. واستمع إليه يقول في فاتحة معلقته:

ودع هريرة إن الركــب مرتحــل وهل تطيق وداعًـا أيهــا الرجــل

فهو يأمر قلبه أن يودعها قبل الرحيل، وسرعان ما يرجع إلى نفسه ينكر ما ظنه فيها من الصبر على الوداع. وهي صبابة لا نعرفها عند الجاهليين، إنما نعرفها عند الأعشى صاحب الذوق الرقيق الذي أثرت فيه الحضارة، وحولته دقيق الحس قدة شديدة فإذا هو يتذلل في حبه ويخضع، وامض معه في المعلقة فستجده يشبب بصاحبته منحرفًا عن طريقة الجاهليين في بكاء آثار الديار والأطلال، فهي موضوع حبه وغزله، ولا داعي لأن يذهب بعيدًا مع الذكريات، وإذن فليأخذ في وصفها مفتنًا في ذلك افتنانًا، فتارة يصف بشرتها وشعرها وعوارضها وتارة يصف مشيتها الوانية وحليها، وتارة يصف تعلق الناس بطلعتها الفاتنة وما تغرق فيه من ترف ونعيم وعطور، ولا يلبث أن يورد علينا هذا البيت الغريب:

علقتها عرضًا وعلقــت رجــلاً غيري وعلق أخرى غيرهـا الرجـل

وهو يصور فيه شقاءه بحبها، فهو يحبها، وهي تعرض عنه، وتحب بجلاً آخر، والرجل يعرض عنها ويحب فتاة أو امرأة ثانية. وسرعان ما يعود، فيتذكر كيف كانت تشفق عليه وعلى نفسها حين زارها ذات مرة، فقال:

قالت هريرة لما جئــت زائرهــا ويلي عليك وويلى منك يــا رجــل

(١) الشاة هنا: كناية عن المرأة.

فقد بالغ في وصف ارتياعها وخوفها على نفسها وعليه، حتى إنها لتتفجع وتتوجع إشفاقًا وضعفًا. ولعل في هذا كله ما يوضح غزل الأعشى وأنه يمتاز من ناحية بأنه حسي مادي ومن ناحية أخرى برقته المفرطة وتصويره لعواطف المحبين وأحاسيسهم التي يبحون بها ولا يستطيعون كظمها ولا كتمها، بل يندفعون في تصويرها معبرين عن ولهم وعشقهم.

والحق أن الأعشى في شعره جميعه يعد تمهيدًا للشعر الحضري الذي ظهر من بعده، سواء في غزله وخمره أو في هجائه ومديحه، فهو في هذه الموضوعات جميعًا يفصح عن ذوق متحضر، سواء في خطاب الأمراء والأشراف والخضوع لهم أو في خطاب النساء والتذلل لهن أو في اللعب بمهجويه والاستهزاء بهم والاستخفاف، أو في وصف الخمر ومجالسها ودنانها وكئوسها.

ولعلنا بعد ذلك لا نعجب إذا رأيناه يشبه العباسيين في مبالغاتهم، فقد كان يسرف على نفسه مثلهم في تصور ممدوحيه، فإذا هو يقول في هوذة بن على الحنفي:

فتى لوياري الشمس ألقت قناعها ... أو القمر الساري لألقى المقالدا[1].

فهو لو يباري الشمس لألقت قناعها خجلاً ولو باري القمر الذل له وانقاد صغارًا. وهي مبالغة مفرطة، ومثلها قوله متغزلاً:

لو أنسدت ميتًا إلى نحرها ... عاش ولم ينقل إلى قابر

حتى يقول الناس مما رأوا ... يا عجبًا للميت الناشر[2].

فلو ضمت ميتًا إلى نحوها لدبت فيه الحياة من جديد، وعجب الناس لما يرون من هذا الميت المبعوث. ويبالغ الأعشى أو قل يزيد مبالغته إفراطًا، فيقول إن هذا الميت حين يبعث إلى دنياه يخلد فيها ولا ينقل إلى مقبرة من المقابر.

ولا يلاحظ عنده إطرافه بمثل هذه المبالغات فحسب، بل يلاحظ أيضًا تعمقه في صنع الأخيلة والصور، فإذا هو يقع منها على مبتكرات كثيرة، نلاحظها لا في موضوعه الجديد فحسب، ونقصد

---

(١) ألقى المقالد: ذل وانقاد: وفي رواية ينادي بدلاً من يباري بمعنى يجالس.

(٢) الناشر: المنشور أو المبعوث.

الخمر، وإنما في أقدم الموضوعات وأكثرها دخولاً في البداوة، ونقصد وصف الناقة، إذ يقول في بعض شعره إنها تجترع الآكام اجتراعًا، لما تطوى منها، يقول:

إذا ما الآثمات ونيــن حطــت  على العلات تجتــرع الإكامــا[1].

ويقول مصورًا سرعة ناقته في الهاجرة:

بجلالةٍ ســرحٍ كــأن بدفهــا  هرا إذا انتعل المطـى ظلالهــا[2].

فهي تجرى مذعورة كأن هرا يخدشها، وليس ذلك الذي يلفتنا عنده، إنما يلفتنا أنه عبر عن تقلص الظلال في الهاجرة بأنه لم يبق لناقته إلا ظل أخفافها، وهي تنتعله في خطاها. وتكثر عنده الصور المخترعة في الخمر، وهي مبثوثة فيما أنشدناه من شعره.

ومن أهم ما يلاحظ عنده سهولة لفظه بالقياس إلى معاصريه وسابقيه من قبيلته أمثال طرفة، وما نشك في أن هذا يرجع إلى أنه تأثر بالحضارة، فرقت معانيه، ورقت ألفاظه رقة لم تعرف لشاعر جاهلي، وليس لفظه وحده الذي رق، بل إن نفسه رقت هي الأخرى ولانت، فإذا هو يأتي بخمرياته وغزلياته السابقة. وحقًا تأثر النابغة مثله بالحضارة، ولكنا نحس عنده أنه يبقى على كثير من بدواته، ولذلك لم يرق غزله ولا خاض في الخمر، أما الأعشى فأقبل على اللهو والطرب والعكوف على الخمر والاستماع إلى القيان. فكان طبيعيًا أن يسهل الشعر عنده بأكثر مما يسهل عنده النابغة، وأن تظهر فيه رقة الحضارة ونعومتها.

ولا يظهر تأثير الحضارة في سهولة ألفاظه فحسب، بل يظهر أيضًا في خفة أوزانه وجمال موسيقاها، وكأنما أثر فيه كثرة استماعه للمغنيات والغناء، فإذا هو يحيل شعره ألحانًا وأنغامًا خالصة. وهو كثير التنويع في أوزانه يستخدم منها التام والمجزوء، ويحسن هذا الاستخدام إلى أقصى الحدود، إذ كان يقتدر على الإتيان بالألفاظ العذبة والكلمات الرشيقة والقوافي المتمكنة.

على أنه ينبغي أن نلاحظ شيئين، هما كثرة ما نحل عليه، وقد أدى ذلك إلى دخول ألفاظ فارسية في بعض قصائده، حمل عليه من أجلها المرزباني في كتاب الموشح، والذي لا شك فيه أن هذا من

---

(١) الآثمات هنا: الوانيات. العلات: الحالات المختلفة. حطت: أسرعت. الإكام: المرتفعات.

(٢) جلالة: ناقة ضخمة. سرح: سهلة. الدف: الجانب.

صنع المنتحلين، ولا يصح أن نحمل على الأعشى بسببه بل ننحى عنه هذا الشعر على نحو ما نحينا عنه القصيدة رقم ٥٥. أما الشيء الثاني فهو أن الأسلوب عند الأعشى ينفك قليلاً عن صورة الأسلوب الجاهلي، ولذلك مظهر واضح هو أننا نفتقد عنده الأبيات المفردة التي تدور في الحكم والأمثال، وكأنما لم تكن لديه مقدرة زهير والنابغة في التركيز وحشد المعاني في الألفاظ القليلة. وربما كان هذا هو سبب كثرة التضمين في أشعاره كقوله في مطلع قصيدته الأولى في ديوانه:

ما بكاء الكبير بالأطلال وسؤالي فهل ترد سؤالي

دمنة قفرة تعاورها الصيـ ـف بريحين من صبًا وشمال[1].

فقد جاء بفاعل ترد في أول البيت الثاني، ومن ذلك قوله في قصيدته التي يفخر فيها بتغلب شيبان على الفرس في يوم ذي قار:

ولله عينا من رأي من عصابة أشد على أيدي السعاة من التي[2].

أتتنا من البطحاء يبرق بيضها وقد رفعت راياتها فاستقلت[3].

وهو يوازن في البيتين بين بني شيبان وجيوش الفرس، فيقول ألا سلمت عينًا من رأي عصابة بني شيبان وإنها لأشد على من يثيرون الحروب من تلك التي أتتنا من البطحاء تبرق خوذاتها وتخفق راياتها. وواضح أنه فصل بين الصلة والموصول في البيتين، وكأنه لم يعترف بأن للبيت الأول نهاية يقف عندها. وهذا التضمين في شعره أكثر من أن نمثل له، فليرجع إليه من أراد، والمهم أنه يدل على انفكاك التعبير عنده، فهو لا يتمه في البيت، بل يتمه في بيت ثان أو أبيات، ولعل ذلك هو سبب كثرة صيغة التفضيل التي اشتهر بها في شعره، وذلك أنه حين يبتغي تفضيل شيء على شيء يجعل المفضل عليه مبتدأ منفيًا بما، ثم يسترسل في وصفه، حتى إذا استوفى ما أراد من هذا الوصف جاء بخبر المبتدأ، على شاكلة قوله في المعلقة يصف صاحبته وما ينتشر من طيبها:

---

(١) الدمنة: آثار الدار. الصبا: ريح جنوبية لينة. تعاورها: تتداولها.

(٢) السعاة: الذين يسعون في الحرب ويهيجونها.

(٣) البطحاء: موضع بقرب ذي قار. البيض: الخوذ. استقلت: ارتفعت وعلت.

ماروضة من رياض الحزن معشبـــة  خضراء جاد عليها مسبل هطـــل[1].

بضاحك الشمس منها كوكب شـــرق  مؤزر بعميم النبت مكتهـــل[2].

يومًا بأطيب منها نشر رائحـــةٍ  ولا بأحسن منها إذ دنا الأصـــل[3].

فقد بدأ بالمبتدأ وهو الروضة، ووصفها في بيتين مادحًا جمالها وما تمدها به الأمطار وكيف تضاحك الشمس أزهارها ونباتاتها، ثم قال إن هذه الروضة على حسنها وشذاها العطر ليست أطيب من صاحبته شذى ولا أبهي منظرًا.

وواضح من كل ما قدمنا أن الأعشى يعد حلقة مهمة من حلقات الشعر الجاهلي، وهي حلقة تضيف جديدًا واضحًا إلى هذا الشعر سواء في موضوعاته أو في معانيه أو في أحاسيسه أو في سهولة ألفاظه أو في خفة أوزانه وجمال أنغامه وألحانه.

(١) الحزن: ما غلظ من الأرض وارتفع وعندهم رياض الحزن أجود وأنضر من رياض المنخفضات. مسبل هطل: كثير الأمطار.

(٢) كوكب: أراد به ما طال من النبات. شرق: ريان من الماء. وأراد بالمضاحكة تفتح الأزهار. مؤزر: لابس إزارا. عميم النبت: ما اجتمع منه وتكاثر. مكتهل: تام.

(٣) الأصل: جمع أصيل وهو الوقت قبل الغروب.



obeikandl.com